المعرفة اللغوية وتفسير النص القرآني

د. زهير غازي زاهد

تمهيد

القراءة الصحيحة للنص نصف تفسيره ، وتتصل صحة القراءة بمعرفة القارئ اللغوية للنص المقروء . وقد شُغل علماء المسلمين في كيفية تفسير القرآن الكريم وما ينبغي للمفسر أن يعتمده في " تفسير ألفاظه وتراكيبه ومعانيه وصور دلالته" [١] كما تحرجوا من استخدام الهوى والرأي في التفسير واستشهدوا بالحديث الشريف عن ابن عباس " من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار " [٢] وقد أكّدوا على اكتمال عدة المفسر في تفسيره لكي لا يبعد به التأويل إلى خلاف التضاد على حين أجيز في تفسيره خلاف التنوع وهو ما يسميه المحدثون تعدد القراءة .

لقد جعل الزركشي علوم القرآن في كتابه " البرهان " سبعة وأربعين نوعاً وجعلها السيوطي في كتابه الاتقان ثمانين نوعاً ، كان على المفسر أن يلمّ بهذه العلوم إلماماً ليكون قادراً أو مؤهلاً لتفسير القرآن لشدة تحفظ المسلمين في قضية تفسيره . قال ابن أبي الدنيا : فهذه العلوم التي هي كالآلة للمفسر لا يكون مفسراً إلّا بتحصيلها فمن فسر بدونها كان مفسراً بالرأي المنهي عنه . [٣]

وذكر السيوطي ثمانية علوم يحتاج إليها المفسر تتصل بالمعرفة اللغوية اتصالاً مباشراً من المفردات ومدلولاتها والنحو وتراكيبه والتصريف وأبنيته والاشتقاق وعلوم البلاغة وعلم القراءات .. . [٤]

وروى ابن عباس أنَّه قسم التفسير على أربعة أقسام : قسم تعرفه العرب في كلامها وقسم لا يُعذَر احد بجهالته ، وقسم يعلمه العلماء خاصة ، وقسم لا يعلمه إلا

---

[١] البرهان للزركشي : 178/2 ، وانظر : الاتقان في علوم القرآن للسيوطي 2/ 389 .

[٢] الاتقان : 2 /389 ، الميزان في تفسير القرآن للسيد محمد حسين الطباطبائي 3 /72 .

[٣] انظر : الاتقان 2 /399 .

[٤] الاتقان : 2 /397 .

الله " [1] إشارة إلى الآية الكريمة ﴿ ***هو الذي أَنزلَ عليك الكتاب منه آياتٌ محكمات هُنَّ أُمّ الكتاب وأُخَرُ متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتّبعونَ ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌ من عند ربنا وما يذّكّر إلّا أُولو الألباب*** ﴾[7آلعمران]

وقد اختلفت الأقوال في تفسير المحكم والمتشابه . [2] وقد جاءت أحاديث وأقوال تدفع إلى الحذر في قراءته وتأويله وتدعو للدقة في تفسير ما يحتمله من وجوه وما تخفيه تراكيبه من معانٍ وأسرار . رُويَ عن الرسول (ص) :" أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل آية منه ظهر وبطن " [3] ورُويَ عنه أيضاً :" ما نزل من القرآن من آية إلَا ولها ظهر وبطن ولكل حرف حد ولكل حد مطلع " وكثرت تأويلات الظهر والبطن والحد والمطلع . [4]

ورووا قول الإمام علي (ع) لابن عباس حين بعثه للخوارج : لا تخاصمهم بالقرآن فإنَّه ذو وجوه ولكن خاصمهم بالسنة . [5]

وروي عن أبي الدرداء قوله : لا يفقه الرجل كلّ الفقه حتّى يجعل للقرآن وجوهاً . [6]

وتعدد قراءة النص من خصائص النص الخالد ؛ لذلك تعددت قراءات القرآن وتفاسيره في العصر الواحد وفي العصور المختلفة ولكن يبقى الاختلاف في قراءته وفهمه في حدود التنوع مقبولاً على أن لا تكون القراءة خلاف تضاد في تأويله وفهمه كما ذكرت . فليس بكاف في فهمه معرفة ظاهر معنى الألفاظ فذلك لا يوصل وحده إلى حقائق المعاني ، إنّما تطلب الدقة في فهم السياق الذي وردت فيه الألفاظ ووظائفها في نصّها .

---

[1] البرهان : 2 / 181 .

[2] انظر الاتقان : 2 / 3

[3] المجازات النبوية ، الشريف الرضي 51 ، البرهان 2 / 170 .

[4] انظر البرهان : 2 / 185 . 186 ، وانظر المعجم الكبير للطبراني 9 / 136 ، جامع البيان للطبري 1 / 25 ، تفسير الميزان للسيد محمد حسين الطباطبائي 3 /72 .

[5] البرهان:1/ 388

[6] السابق: 2 / 171 .

فظاهر الآية الكريمة ﴿ ***وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى***﴾[17الأنفال] واضح وحقيقة معناها غامضة فإنَّه اثبات للرمي ونفي له وهما متضادان في الظاهر.

وكذلك قوله تعالى : ﴿ ***قاتلوهم يعذّبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم***﴾[14. التوبة] " فإذا كانوا هم القاتلين فكيف يكون الله سبحانه هو المعذّب وإن كان تعالى هو المعذّب .. فما معنى أمرهم بالقتال ." [١]

لقد سلك المفسرون مذهبين في التفسير : أحدهما تفسير اعراب أي تطبيق قواعد النحو ، والآخر تفسير معنى " والفرق بينهما إنَّ تفسير الإعراب لا بد فيه من ملاحظة الصناعة النحوية ، وتفسير المعنى لا يضر مخالفة ذلك " [٢]

وبهذا قد يقع المفسر بما تقتضيه الصناعة النحوية ، خصوصاً إذا التزم بأقوال مذهب نحوي وتجوازته في تفسيره لقضية وقوع المجاز أو عدمه ووقوع الزيادة في القرآن أو عدم وقوعها . فقد يتجاذب الإعراب والمعنى الشيء الواحد " يوجد في الكلام إن المعنى يدعو إلى أمر والإعراب يمنع منه .. والتمسك بصحة المعنى يؤول إلى صحة الإعراب " [٣] ويعود هذا أيضاً إلى الصناعة النحوية وخلاف النحويين .

كل ذلك يدعو المفسر إلى دقة النظر ووعي اللغة وأسرار استعمالاتها في القرآن الكريم .

- **اللغة والمعرفة اللغوية :**

اللغة مرآة للعقل الانساني فهي وسيلة للفكر والفهم كما تكون وسيلة للاتصال والتعبير ولتسجيل حضارة الأمم وحفظ تراثها . وقبل اهتداء الانسان لمعرفة اللغة عاش في تيه من الزمن والنسيان . فاللغة بعد ذلك هي وسيلة وغاية في مجال الابداع . والتفسير البياني للقرآن له خصيصة فضلها بعض المفسرين؛ لأنَّها كلام بياني على كلام الله المعجز . والذي أعنيه باللغة كلّ مستوياتها : الصوتية ، والصرفية ، والنحوية ، والدلالية ..

- **ممّ تتألف المعرفة اللغوية ؟**

---

[١] البرهان : 172/2 .

[٢] السابق : 380/1 .

[٣] انظر السابق : 385/1 ، وانظر الأمثلة التي ذكرها لذلك .

إنَّ المعرفة اللغوية هي مجموع التصورات النظرية لبنية اللغة ، فمنذ عصر مبكر شغل النص القرآني العلماء لتتدبره من خلال تفسير ألفاظه وتراكيبه وضبط قراءته ومعرفة أحكامه وصور دلالاته ، فنشأت من ذلك العلوم العربية . فمنذ أن وضع أبو الأسود الدؤلي (ت69 هـ) نقط اعرابه وبعض قواعده بإشارة من الإمام علي كما روت الأخبار [١] كان هذا النقط أول الضوابط اللغوية لحركات أواخر الكلم ، ومنها انطلقت الجهود اللغوية فتطورت حتّى وضع علم الإعراب . ومصطلح الاعراب لم يكن بدلالته الضيقة التي شغلت مدرسي النحو إنَّما كان بمعناه الأوسع هو البيان والإيضاح. وقد روي عن النبي (ص) كلامٌ في التشجيع على اعراب القرآن في أثناء تلاوته أي بيانه وتوضيح ألفاظه . وسُمي نقط أبي الأسود عربية وكان يعني النحو بمعناه الواسع أي إقامة أصوات الكلمة المنطوقة وصحة بنيتها ثمّ صحة التركيب فصحة الدلالة . كلُّ ذلك كان عربية حتّى إذا وصلنا إلى عصر الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175 هـ) نجد علم النحو قام على أسسه العلمية وأُقيم هيكله بمعناه الشامل على أصوله من السماع والقياس والتعليل

وإلى جانب تطور علم النحو كانت جهود علماء في تفسير النص القرآني ومحاولة اثبات اعجازه على اختلاف الآراء والأقوال ، وما يعنينا الرأي القائل بالاعجاز البياني بنظم كلمه في أساليب وأنساق وقف الفصحاء عاجزين عن أن يأتوا بمثله . فمن أوائل ما ظهر في تفسيره جهود ابن عباس (ت 68هـ) في تفسيره وبيان دلالات مفرداته واتخاذ شعر العرب مجالاً للاستشهاد ولذلك كان يقول : " إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فإنَّ الشعر ديوان العرب " [٢] وابن عباس بعد الإمام علي بن أبي طالب في مقدمة الصحابة الذي كثر عنهم تفسير القرآن ، وهو من دعى له النبي (ص) بقوله : " اللهم فقهه في الدين وعلّمه التأويل" [٣] لقد ألّف العلماء في مجاز القرآن ومعانيه واعرابه وقراءاته الكتب وتعد كل هذه المصنفات من

---

[١] انظر : مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي 6 ، طبقات النحويين واللغويين لأبي بكر الزبيدي 1 ، نزهة الألباء . أبو البركات الأنباري 18 ، إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي 154/1 .

[٢] غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري 1 / 426

[٣] صحيح مسلم حديث 138 ، البرهان للزركشي 2 / 177 .

التفسير اللغوي كما ظهرت الكتب في نظمه واعجازه للجاحظ والخطّابي والجرجاني والباقلاني وغيرهم . ولما كان القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين وهو بيان للناس كانت تلك الكتب وما ألّفه الجاحظ في "البيان والتبيين" تحتوي على بذور البلاغة التي تطورت بعد ذلك فصارت علماً احتوى ثلاث شعب هي : المعاني ، والبيان ، والبديع . وقد ألفت كتب أيضاً في ظواهر لغوية في القرآن مثل الأشباه والنظائر، والاتباع ، والإمالة والادغام والوقف والابتداء ، والتذكير والتأنيث ، والمقصور والممدود ، والمؤتلف والمختلف ، ثم ألفت كتب في مفرداته وغريبه، ثم المعجمات عامة وفقه اللغة .

هذه المصنفات المختلفة قد ألفت علوم العربية عامة . ومنذ القرن الثالث ظهرت المصنفات في تفسير القرآن على اختلاف مذاهب تأليفها فمنها ما اهتم بالمأثور من أقوال الصحابة والتابعين واستنباط أحكام منها مع ذكر وجوه الاعراب لتوضيحها ، وفيه نقل الروايات المختلفة التي تحتاج إلى تدقيق وهو المسمى بـ(التفسير بالمأثور) كتفسير الطبري (310هـ) (جامع البيان في تفسير القرآن) ومنها ما اهتم ببيان أساليب القرآن الكريم وذكر المواضع البلاغية متخذاً البيان لتأكيد اعجازه كتفسير الكشاف للزمخشري (ت 538هـ) ، ومنها ما اهتم بالاستدلالات الكلامية والمنطقية والاسترسال في تأويل الظواهر الكونية ميلاً مع وجهة نظره ومذهبه كتفسير الرازي (ت606هـ) (مفاتيح الغيب) ومنها ما بسط القضايا اللغوية في مجال بسط موضوعاته والوصول إلى معانيه كتفسير (البحر المحيط) لأبي حيان الأندلسي (ت 745هـ) و (المحرر الوجيز) لابن عطية (ت 543هـ) و (تفسير التبيان) للطوسي (ت 460هـ) و(مجمع البيان) للطبرسي (ت548هـ) .

كما ظهرت مصنفات في علوم القرآن بمعنى المصطلح الجامع مثل (البرهان في علوم القرآن) لعلي بن ابراهيم الحوفي (ت 430هـ) و (فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن) لابن الجوزي (ت 597هـ) و(البرهان في علوم القرآن) للزركشي (ت794هـ) و (الاتقان في علوم القرآن) للسيوطي (ت 911هـ) و (مناهل العرفان في علوم القرآن) لعبد العظيم الزرقاني .. وغيرها ، وكلُّها يؤكد مصنفوها على أهمية علوم اللغة للمفسر اضافة إلى معرفة العلوم الأخرى التي تتصل بنصه وتؤدي إلى فهمه لكن معرفة علوم العربية هي المدخل المهم لذلك بدءاً بمفرداته معانيها وصيغها ،

وتراكيبه: صورها وأساليبها ودلالاتها ، ويحتاج المفسر فوق ذلك إلى شيء ليس من العلوم إنَّما هي الملكة اللغوية والقدرة على وعي العلوم واستيعابها . هذه الملكة استعداد خاص يختلف من شخص لآخر في قوته وضعفه سمَّاه السيوطي (علم الموهبة) وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم وإليه الإشارة بالحديث "من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم" [1]

- **كيف توضّف المعرفة اللغوية ؟**

ليست المعرفة اللغوية ضرورة لمفسر القرآن الكريم فحسب وإنما هي ضرورة للفقيه والأصولي والمنطقي والفيلسوف والأديب . المهم كيف توظّف هذه المعرفة ؟ وكيف يستخدمها المفسر في مجاله ؟

لقد وضعت شروط لمفسر القرآن كان الإلمام بعلوم العربية أول هذه الشروط غير أنَّ المفسرين يتفاوتون في معرفة أنواع هذه العلوم ؛ لذلك تنوعت التفاسير وتعددت قراءة القرآن ، وكان جميعهم يوظفون علمهم بالعربية في تفسير النص واستنباط معناه ودلالة تراكيبه وأساليبه لكنَّنا ينبغي لنا أن نعرف أن ليس كل من اشتغل بالنحو أو اللغة كان من أهل المعرفة بها فقد يكون حافظاً قواعد النحو وأقوال اللغويين ولكن قدرته المعرفية لا تتجاوز إعادة ما حفظه من دون استنباط ما وراء ذلك من دلالات الأساليب البيانية والتراكيب القرآنية خاصة في أحكامه ، فهو إما أن ينساق في موقفه مع مذهب نحوي فيردد ما حفظه من قواعده وأقواله وإما أن يميل في أحكامه إلى مذهب يحسنه في الفقه أو الفلسفة والكلام . وقد ذكرت قبل قليل نماذج من التفاسير.

إن لمعرفة اللغة: أساليبها ومفرداتها، أثراً في تفسير المفسرين. فالكلمة قد تكون غامضة فسياق استعمالها يكشف عن وظيفتها في التركيب. وغرابة الكلمة إما لكونها حوشية غير معروفة وهذا غير موجود في القرآن الكريم ، وإما لغموضها أو احتمالها أكثر من معنى وهو ما احتمله النص القرآني فالمعرفة باللغة تفتح مغاليقها وتكشف عن دلالتها في سياقها . وسؤالات ابن الأزرق لابن عباس في هذا المجال معروفة وطلبه الاستشهاد من شعر العرب عليها ليستبين معناها فكان ابن عباس يجري مع

---

[1] الإتقان 2 / 399 .

رغبته ويوضح له مايريد [١] وقد ألف العلماء كتباً في غريب القرآن كابن قتيبة (ت276هـ) وأبي بكر السجستاني (ت 330هـ) وأبي عبد الرحمن بن المبارك اليزيدي (ت237هـ) وأوضحوا نوع الغرابة فيها ومواطن خفائها أو غموضها . [٢] فقد يكون للكلمة في سياقها دلالة سياقية تختلف عن دلالتها المعجمية فهذا حقل علمي آخر ينظر في نظم القرآن واختلاف أساليبه وأثر الأدوات في ذلك . ولهذا المجال اللغوي أهمية معرفية للمفسر يدخل فيها خصوصية الاستعمال القرآني للكلمة ثم تنوع أنماط الجمل لاختلاف ما يدخل عليها من الأدوات ثم تنوع دلالة الأسلوب الواحد من حيث عبارته على الحقيقة وما يخرج إليه من الأغراض البلاغية والأسلوبية .

- **الكلمة القرآنية وخصوصية استعمالها :**

إن المتأمل في استعمال الكلمة في النص القرآني يخرج بتصورات منها ما يتصل بايقاعها الصوتي ومنها ما يتصل بخصوصية استعمالها القرآني .

الايقاع الصوتي للكلمة : كثيراً ما نجد الكلمة القرآنية توحي بمعنى يضاف إلى معناها المعجمي أو العرفي من خلال جرس أصواتها التي تحاكي الحدث فترسم صورة الحدث في ذهن المتلقي أو القارئ وذلك غير ما أشارت إليه الدراسات اللغوية منذ عصر الإغريق التي قالت برمزية الأصوات [٣] ، وغير ما ذكره ابن جني في حديثه عن أصل اللغة [٤] من ذهاب بعضهم إلى أن اللغة مأخوذة من الأصوات المسموعات في الطبيعة وظواهرها . نحن لا نعني هذا التفسير فالبحث في أصل معاني الألفاظ عند وضع اللغة غاية لا تدرك إنما نعني هنا الدلالات المكتسبة من حكاية الأصوات وتناسبها وما تضيفه وتوحيه صفاتها المؤلفة من ظلال المعاني إلى المعنى المعجمي . فالتكرار الصوتي والمقطعي يوحي بتكرار الحدث والتشديد يوحي بالمبالغة والكثرة ،

---

[١] انظر تفصيل ذلك (مسائل ابن الزرق) في ضمن كتاب الإعجاز البياني للقرآن لبنت الشاطئ 2/ 289 وما بعدها

[٢] انظر مقدمة محقق كتاب غريب القرآن وتفسيره لأبي عبد الرحمن بن عبد الله بن المبارك اليزيدي ، عالم الكتب بيروت

[٣] انظر دور الكلمة في اللغة أولمان 99 .

[٤] انظر الخصائص 1 / 46 .

وانسجام أصوات الكلمات في سياقها يوحي بالسلاسة والرقة وهذه معاني تضاف إلى معانيها المعجمية .

للكلمة تاريخ من الاستعمال يحمل تجارب الأجيال التي استعملتها وهي تحيا بالاستعمال وتموت بعدمه . وقد عقد ابن جني (ت 392هـ) أربعة أبواب في الجزء الثاني من (الخصائص) [1] حاول فيها اثبات مفهوم الصلة بين اللفظ ومدلوله وايحاء الأصوات بما يناسب الأحداث لكنه بالغ في حديثه وتصوره دلالة أصوات الكلمات وحكايتها لمعانيها وقد سبقه الخليل بن أحمد (ت 175هـ) بقوله : " كأنَّهم توهموا في صوت الجندب استطالةً ومداً فقالوا صرّ وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا صرصر " [2]

ولم يهمل اللغويون المحدثون النظر في الصلة بين اللفظ ودلالته . فقد ناقشها ابراهيم أنيس ، وتمام حسان ومن الغربيين يسبرسن وأولمان وغيرهم فكانت خلاصة موقفهم أن توليد المعنى عن طريق المحاكاة والتقليد بواسطة الصوت له دور ذو أهمية وحيوية وقد وضعت نظم رمزية ترمي إلى بيان القيمة التعبيرية المتصلة بالأصوات المختلفة ولكن ينبغي لنا أن لا نبالغ في ذلك . [3]

نحن نعرف أن النص الإبداعي يهدف إلى الوصول بالكلمة إلى كامل قوتها وإيحائها سواء بالإيقاع وايحاء جرس الكلمة أو التكرير والتشديد على أصوات معينة وغير ذلك من الوسائل الفنية .

لقد استعمل النص القرآني ألفاظاً ذات أصوات تحمل طاقة ايحائية توحي بمعانٍ تضاف إلى معناها العرفي ، وهذا هو البصر بجوهر اللغة ، فقد يولّد معنى المبالغة والتضخيم ما تحكيه الأصوات المفخمة فتثير ما يشبه الدوي توحيه الكلمات المؤلفة منها ، فحين نقرأ قوله تعالى : ﴿ ***والذين كفروا لهم نار جهنّم لا يُقْضَى عليهم***

---

[1] هي : (باب تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني 113/2 ، وباب الاشتقاق الأكبر 133 .. وباب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني ، وباب أمساس الألفاظ أشباه المعاني 152

[2] الكتاب 4 / 14 ، وانظر الخصائص 2 / 152

[3] انظر دلالة الألفاظ ، ابراهيم أنيس 68 . 69 ، دور الكلمة في اللغة أولمان 99.84 .البيان في روائع القرآن الفصل السابع 175

فيموتوا ولا يُخَفّفُ عنهم من عذابها كذلك نجزي كلّ كفور . وهم يصطرخون ربَّنا أخرجنا نعمل صالحاً.. ﴾ [37.26 فاطر]

إن تدرج سياق الآية بوصف الكافرين ، فهم في نار جهنم في اضطراب وبعذاب دائم ﴿***وهم يصطرخون***﴾ جعل هذه العبارة توحي بدوي صراخهم ، فهناك فرق بين (يصطرخون) و(يصرخون) إذ اجتمع في (يصطرخون) ثلاثة أصوات مفخمة : الصاد ، والطاء المنقلبة عن تاء افتعل ، والخاء فاصبح الفعل يحاكي أصداء صراخهم من دوي وصخب عالٍ أوحى به التفخيم في أصوات الفعل .

ومثل ذلك كلمة (صريخ) في الآية ﴿ وإن نشأ نُغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم يُنْقَذُون ﴾ [43يس] فالصريخ المغيث كأنّه يستجيب لصراخ من يستغيث به فاجتماع الصاد والخاء صوتين مفخمين في الكلمة جعلها في سياقها توحي بصراخ المستغيث.

وكذا ما توحيه كلمة (ضيزى) من المبالغة في عدم العدالة في الآية ﴿ تلك إذاً قسمةٌ ضيزى ﴾ [22النجم] وهكذا ما يوحيه التشديد في الكلمات (الصاخّة والحاقّة والطامّة وسجّيل وعتلّ وزقوم ويُدَعّون إلى نار جهنّم دعّا..) فكل هذه الكلمات في سياقاتها من الآيات تتولد منها معانٍ ايحائية تضاف إلى المعنى المعجمي، فأصواتها وبنيتها توحي بظلال دلالتها ، وقد قال الصرفيون كل زيادة في حروف الكلمة زيادة في معناها .

ونذكر في هذا المجال ما يوحيه تكرار المقطع اللغوي بتكرار المعنى في مواضع من النص القرآني . من ذلك قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون ﴾ [26الحجر] .فالصلصال صوت الطين اليابس الذي لم تمسه نار ، فإذا نقرته صلّ أي صوّت صوتاً ذا رنين . وصلصل مثل صرصر فكلاهما تتألف من أصوات تناسب معناها بل هي معناها الذي توحيه .

ومن هذا القبيل ما توحيه الكلمات : كُبْكبوا وزُلْزِلت الأرض زلزالها ، ودمدم عليهم ربهم ، ويوسوس ، وغيرها مما في مواضعه من النص القرآني .

إنّ هذا هو البصر بجوهر اللغة الذي تمتاز به النصوص العالية الإبداع . وهذه الظاهرة يمكن أن تدرس في مجال اعجاز هذا النص المعجز .

- **خصوصية استعمالها:**

يمكننا النظر في خصوصية استعمال الكلمة القرآنية من خلال مفهوم ظاهرة الترادف والمشترك والتضاد وموقف اللغويين منها .

فاللغويون في قضية الترادف اللغوي على خلاف ، فمنهم من ذهب إلى وجوده في اللغة والقرآن الكريم فيجمع للمعنى الواحد ألفاظاً عدة ، ومنهم من ينكر ذلك وحاول أن يوجد الفروق بين الألفاظ المترادفة [١] على اعتبار ما من لفظ يمكن أن يقوم غيره مكانه في القرآن الكريم . وذلك من خصائص اعجازه . فللشيء اسم واحد وما بعده من المرادفات فهي صفات ، فالسيف هو الاسم وأما المهند والحسام والصارم .. فهي صفات .

وأما المشترك فهو أن يكون للكلمة الواحدة أكثر من دلالة . واللغويون فيه على خلاف أيضاً خصوصاً في وجوده في القرآن الكريم . وقد ألّف تحت هذا العنوان كتب (الأشباه والنظائر) لمقاتل بن سليمان البلخي (ت 150هـ) وكتاب (الوجوه والنظائر في القرآن) لهارون بن موسى الأعور (ت170هـ) وللمبرد النحوي (ت285هـ) كتاب عنوانه (ما اتفق لفظه واختلف معناه في القرآن المجيد) لكنه اشترط في الكلمة التي يوردها أن يكون القرآن الكريم قد استعملها بمعانيها فبهذا الشرط ضيّق مفهوم الاشتراك عما نجده لدى مؤلفي الكتب السابقة ولدى اللغويين .

لقد جعل الزركشي موضوع الوجوه والنظائر النوع الرابع من علوم القرآن [٢] وفسر مصطلح (الوجوه) بأنه المشترك الذي يستعمل عدة معاني للفظة ، وفسر مصطلح (النظائر) بالألفاظ المتواطئة المترادفة . وقد عدّ بعضهم ذلك من معجزات القرآن حيث كانت الكلمة الواحدة تتصرف إلى عشرين وجهاً أو أكثر أو أقل ولا يوجد ذلك في كلام البشر . [٣]

قلت أن اللغويين قديمهم وحديثهم على خلاف في هذه الظواهر اللغوية [٤] ، وهناك من يرى أن فيها مبالغة خصوصاً في القرآن الكريم ، ويرى أنّ نسبة الترادف

---

[١] مثل الثعالبي في (فقه اللغة) وأبي هلال العسكري في (الفروق اللغوية) وأحمد بن فارس في (الصاحبي) وابن جني في (الخصائص)

[٢] انظر البرهان 1 / 133 .

[٣] انظر البرهان 1 / 134 .

[٤] انظر تفصيل ذلك : كتاب المزهر للسيوطي 1 / 369 ، 430 ، ودلالة الألفاظ ابراهيم أنيس

ليست كما ذكروا من أنّ للهدى سبعة عشر معنى : البيان والدين والايمان والداعي والرسل والكتب .. [1] ومع ذلك فالترادف أوسع من المشترك في اللغة وأكثر ما ذكروه على أنه من المشترك هو أقرب إلى المجاز كالعين الباصرة تستعمل لعيون الماء ، وأمة بمعنى جماعة من الناس وهو المعنى القرآني المألوف كقوله تعالى : ﴿ ***ربَّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمةً مسلمةً لكَ*** ﴾[2] [128البقرة] وأمة بمعنى الحين ﴿ ***واذكر بعد أمة*** ﴾ [45يوسف] وأمة بمعنى الدين ﴿ **إنا وجدنا آباءنا على أمة** ﴾ [22الزخرف] .

ومما ذكر من المشترك في كتب اللغة لم يستعمل في القرآن الكريم إلا بمعنى واحد مثل كلمة (الخال) لم يرد لها إلا معنى قرآني واحد وهي من ألفاظ القرابة وقد استعملت خمس مرات ، وكذلك كلمة (انسان) المستعملة في القرآن خمساً وستين مرة ليست إلا معنى قرآني واحد ، وكلمة الأرض التي تذكر لها كتب المشترك اللفظي معاني كثيرة وردت في القرآن خمسمائة مرة بمعناها القرآني المألوف [3]

وأمّا الأضداد من الألفاظ أي الألفاظ التي تدل على المعنى وضده على وفق سياقها في الاستعمال وقد ذكر منها كلمة (عسعس) في الآية ﴿ ***والليل إذا عسعس*** ﴾ [17التكوير] بمعنى أقبل وأضاء وبمعنى أدبر [4]

وكلمة (أسرّ) في الآية ﴿ ***وأسرّوا الندامة لما رأوا العذاب*** ﴾ [54يونس] بمعنى الاظهار مرة وبمعنى الإخفاء أخرى .

وكلمتا (شرى واشْتَرى) في الآيات :

﴿***ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله*** ﴾ [207البقرة]

---

210 ، 224 ، مبحث المشترك والترادف للسيد محمد تقي الحكيم 89 في ضمن كتابه (من تجارب الأصوليين) ،علم الدلالة أحمد مختار عمر 147

[1] انظر تفصيل ذلك وشواهده : البرهان للزركشي 134 ، 135 ، الاتقان 1 / 300 .301

[2] انظر أيضاً الآيات 134 . 141 . 143 . 213 من البقرة و 104 . 110 . 113 من آل عمران وكثير من آيات أخر

[3] انظر المزهر 1 / 387 ، دلالة الألفاظ 215 . 216 .

[4] انظر اعراب القرآن للنحاس 3 / 638 .

﴿ ***وشروه بثمن بخس دراهم معدودة*** ﴾ [20يوسف]

﴿ ***ولبئس ما شروا به أنفسهم*** ﴾ [102البقرة]

﴿ ***بئسما اشتروا به أنفسهم*** ﴾ [90البقرة]

قال الفراء : للعرب في شروا واشتروا مذهبان : فالأكثر منها أن يكون شروا بمعنى باعوا ، واشتروا : ابتاعوا ، وربما جعلوهما جميعاً في معنى باعوا. [1] إنّ ذلك من الظواهر الدلالية التي قال بها اللغويون ومنهم من أنكرها أن تكون في القرآن الكريم ، وهذه الظاهرة من اختلاف اللهجات العربية التي جمعها اللغويون . [2] وذلك ما أذهب إليه في القرآن الكريم خاصة .

إن الاستعمال القرآني فيه من الدقة في توظيف الألفاظ ما يحتاج إلى تأمل في تدبره وقد ذكرت أمثلة من الاستعمال القرآني مما ذكروه من المشترك وسأذكر مما عدّوه من الترادف لنرى أنه في النص القرآني ليس كذلك فليس هناك تطابق للمعنى في اللفظين وإنما لكل لفظ معنى دقيق لا يطابق رديفه الآخر ، وسأذكر ثلاثة نماذج عدّها المعجم من المترادف وهي الكلمات :

1. آنسَ وأبصرَ 2. زَوْج وامرأة 3. أَقْسَمَ وحَلَفَ

ولم تكن هذه الألفاظ من المترادف إنما جاءت في النص القرآني كل لفظة بمعنى لا يطابق الآخر بل يكون معناها مختلفاً في سياق استعمالها .

1. الفعل **(آنس)** في المعجم : أبصر ، وآنس الصوت سمعه (وآنس ناراً) أبصرها أو نظرها أو رآها . وهذه الألفاظ ليست مرادفة لآنس . فاستعمال آنس القرآني معناه أبصر مع الإحساس بالأنس والشعور بالراحة . وقد استعملت أربع مرات فيما رآه موسى من نار وهو يسير بأهله فآنس إليها وسكنت نفسه لأنّه كان مقطوعاً فعاد إليه الرجاء بالاهتداء بقوله ﴿ ***لعلي آتيكم منها بقبس*** ﴾ [3]

قال تعالى: ﴿ ***إذ رأى ناراً فقال لأهله أمكثوا إني آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس ..*** ﴾ [10طه]

---

[1] معاني القرآن 1 / 56 ، وقال الجوهري هو من الأضداد [الصحاح (شرى)]

[2] انظر : الصاحبي 117 ، المزهر 387 ، 389 .

[3] انظر : الكشاف للزمخشري 2 / 531 ، مجمع البيان 7 / 330 ، وانظر الإعجاز البياني للقرآن 217.

وقوله : ﴿ ***إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً سآتيكم منها بخبر ..*** ﴾[7النمل]
وقوله : ﴿ ***فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر ..*** ﴾ [29القصص]
وقد استعمل الفعل مرة خامسة بمعنى شعرت بالشيء قال تعالى : ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم﴾[6النساء]
وتصريف الفعل " آنس " يبقى حاملاً دلالته الرقيقة الواضحة والإيناس : إبصار ما يؤنس والابصار البين لا شبهة فيه كما يقول الزمخشري .
أما الفعل المرادف " أبصر " أو " رأى " فليس له هذا الشعور والايحاء عند الاستعمال ولا يمكننا أن نقيمه مكان آنس ولا يطابق معناه فهو بمعنى نظر ببصره أو بمعنى تأمل . وهذا لا يطابق ذاك .

2. أما (**زوج وامرأة**) فهما في الظاهر مترادفتان لكنهما في الاستعمال القرآني ليس كذلك .
إن لفظة " زوج " في القرآن تعطينا العلاقة التي فيها النماء والحكمة والمودة فخطابه لآدم بقوله ﴿ ***اسكنْ أنت وزوجُكَ الجنة*** ﴾ [35البقرة]
وقال ﴿ ***ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة*** ﴾ [21الروم]
وقال ﴿ ***وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ..*** ﴾ [15آلعمران]
وقال ﴿ ***والذين آمنوا وعملوا الصالحات .. لهم فيها أزواج مطهرة..***﴾[57النساء]
وهكذا تكون دلالة لفظة زوج في بقية الآيات 70 الزخرف ،56 يس،74الفرقان . تدل كلها على تلك المودة والعلاقة الرحيمة .
أما لفظة " امرأة " فالاستعمال القرآني يحملها دلالة لا تطابق لفظة " زوج " فالمرأة في النص القرآني رمز لعدم المودة والخلاف في العقيدة والخيانة والعقم [1] وشواهدها

---

[1] انظر : الاعجاز البياني 229 ، 230 .

قوله تعالى في امرأة العزيز ﴿ ***امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً ..*** ﴾ [30يوسف]

وقوله ﴿ ***.. قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه..***﴾[51يوسف]

وقوله ﴿ ***وضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً*** ﴾ [10التحريم]

وقوله تعالىفي امرأة فرعون ﴿ ***وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت ربّ ابنِ لي بيتاً في الجنة ونجّني من فرعون وعمله..*** ﴾[11التحريم] المرأة في الآيتين اختلفت دلالة موقفيهما فالأولى ذكرت في موقف الخيانة لرجل صالح وفي الثانية ذكرت في موقف خلاف في الدين فهي مؤمنة وهو كافر وفي كلا الموقفين جاءت كلمة امرأة لا زوجة ، وكذا عندمايكون تعطيل

للنماء فهي امرأة كما جاء في نداء زكريا ربه في قوله ﴿ ***وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك وليا*** ﴾ [5مريم] وهكذا يكون الاستعمال القرآني للفظة امرأة في بقية الآيات التي وردت فيها. " فإذا تعطلت حكمة الزوجية في البشر بعقم أو ترمل فامرأة لا زوج فالآيات في امرأة ابراهيم وامرأة عمران (هود 71 والذاريات 29 وآل عمران 35) "[1] وزكريا عندما طلب من ربه في الآية السابقة أن يهب له ولياً يرثه ذكر لفظة (امرأتي عاقراً) في ندائه ، وحينما استجاب له ربه وتحققت الحكمة الزوجية ذكرت بلفظة (زوج) في قوله تعالى ﴿ ***فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه*** ﴾ [90الأنبياء] فحينما كانت عاقراً فهي امرأة وحين أصلحت وتحققت الحكمة فهي زوج .

فاللفظان إذن غير متطابقين في الدلالة ، وهناك فرق في دلالتها يظهر في سياق الاستعمال .

3. الفعلان (**أقسم وحلف**) هما في الظاهر مترادفان ويبدو الفرق في دلالتهما في الاستعمال . فالفعل أقسم ومصدره القسم يأتي في سياق الأيمان الصادقة وعدم الحنث

---

[1] الاعجاز البياني للقرآن : 231 .

؛ لذلك جاء في القرآن في مواضع مسنداً إلى الله تعالى في كل الآيات التي تبدأ بالحرف (لا)

كقوله تعالى : ﴿ ***لا أقسم بيوم القيامة. ولا أقسم بالنفس اللوامة . أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه*** ﴾ [1.3القيامة]

وقوله : ﴿ ***لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد*** ﴾ [1.2البلد]

وقوله : ﴿ ***فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنَّه لقسمٌ لو تعلمون عظيم*** ﴾ [75.76الواقعة]

وقد يسند القسم إلى الضاليين عند توهمهم الصدق أو ايهامهم به قبل معرفة حقيقتهم كقوله تعالى : ﴿ ***وأقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنُنَّ بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم انها إذا جاءت لا يؤمنون*** ﴾ [10الأنعام]

وقوله : ﴿ ***ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم إنهم معكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين*** ﴾ [53المائدة]

لقد كان الفعل (أقسم) ومصدره في حدود هذه الدلالات في الاستعمال القرآني إنه يستعمل في صدق اليمين وعظمته أو في إيهام الصدق ووهمه على لسان المنافقين والضالين قبل انكشافهم وفضحهم .

أما الفعل (حلف) في الاستعمال القرآني فدلالته تفرق عن (أقسم) فسياق استعمال (حلف) يكون في مجال الحنث في اليمين وفي الغالب انه يأتي مسنداً إلى المنافقين كأيات التوبة التي فضحت زيف نفاقهم [1]

وقوله تعالى ﴿ ***يحلفون بالله لكم ليُرْضُوكم والله ورسوله أحق أن يُرْضُوه إن كانوا مؤمنين*** ﴾ [62التوبة]

وقوله : ﴿ ***سيحلفون بالله لو استطعنا لَخَرَجْنا معكم يُهلكون أنفسهم والله يعلم انهم لكاذبون*** ﴾ [42التوبة]

وقوله: ﴿ ***يحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم*** ﴾ [56التوبة]

---

[1] انظر: الإعجاز البياني للقرآن 221.222 وللمزيد من ذلك ينظر (سؤالات ابن الأزرق) فقد وردت فيها ألفاظ تفرق عن مرادفاتها في المعنى عند الاستعمال .

وكذا جاءت دلالة (حلف) في باقي الآيات الكريمات [١]

كل ذلك يدعونا إلى التأمل في الاستعمال القرآني وما جاء فيه من الفروق في الدلالة بين المترادفات ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن الترادف موجود لكنه بمعناه العام وليس موجوداً في الأصل فينبغي لنا أن ننظر إلى التطور في اللغة واستحداث الألفاظ الجديدة في الاستعمال أو الدلالات المستعمل منها فالمترادف من الكلم لم يوضع في وقت واحد في بيئة واحدة . فأما أن تكون احداها أصلاً والأخريات صفات استعملت بمرور الزمن استعمال الأسماء كما ذكر ابن فارس أو انها لهجات استعملت فيها ألفاظ بمعنى متقارب وعند جمع اللغة عدها اللغويون مترادفات [٢] ولكن ظل النظر الدقيق في الاستعمال يشعر بفروق الدلالة ، وهذا ما أكده أبو هلال العسكري في كتابه (الفروق اللغوية) وكذا ما أكده ابن فارس كما مرّ ذكره وشيخه أبو العباس ثعلب وأبو علي الفارسي وابن درستويه .

وقد أكد المفسرون على توخي الدقة في المعنى المراد في تفسير القرآن الكريم قال الطبرسي : " إن كان اللفظ مشتركاً بين معنيين أو أكثر ويمكن أن يكون واحد من ذلك مراداً ينبغي أن يقدم عليه بجسارة فيقال : إن المراد به كذا قطعاً إلا بقول نبي أو إمام معصوم " [٣]

---

[١] انظر: الإعجاز البياني للقرآن 222،221 ، وللمزيد من ذلك ينظر (سؤالات ابن الأزرق) فقد وردت فيها ألفاظ تفرق عن مرادفاتها في المعنى عند الاستعمال .

[٢] كذلك نظر أكثر اللغويين في المشترك انظر : المزهر 1 / 369 وكذا الأضداد 1 / 388 ، 389 ،404 ، 405 وانظر الصاحبي 117،114 ، وكتاب شرح فصيح ثعلب لابن درستويه وكتاب التعريفات للسيد الشريف الجرجاني علي بن محمد

[٣] مجمع البيان 1 / 81 ، 82 .

المصادر والمراجع

١. الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت 1987.

٢. الإعجاز البياني للقرآن: د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار المعارف، 1987.

٣. إعراب القرآن: أبو جعفر النحاس، تحـ د. زهير غازي زاهد، وزارة الأوقاف العراقية، م العاني، بغداد 1977- 1980.

٤. إنباه الرواة على أنباه النحاة: جمال الدين القفطي، تحـ أبو الفضل إبراهيم، م دار الكتب المصرية 1950.

٥. البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي، دار الكتب العلمية، بيروت 1988.

٦. البيان في روائع القرآن: د. تمام حسان- عالم الكتب ضمن مشروع مكتبة الأسرة.

٧. التعريفات: السيد الشريف الجرجاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت 2003.

٨. تفسير الميزان: السيد محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي- بيروت 1997.

٩. جامع البيان في تفسير القرآن: لأبي جعفر الطبري، دار المعرفة، بيروت 1983 مصور عن طبعة بولاق.

١٠. الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جني، تحـ محمد علي النجار، القاهرة، م دار الكتب المصرية 1952.

١١. دلالة الألفاظ: د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية 1980.

١٢. دور الكلمة في اللغة: ستيفن أولمان، ترجمة د. كمال بشر، مكتبة الشباب القاهرة 1986.

١٣. الصاحبي: أحمد بن فارس، تحقيق أحمد صقر، م عيسى البابي الحلبي، القاهرة 1977.

١٤. صحيح مسلم: ط1 المطبعة المصرية بالأزهر 1930.

١٥. طبقات النحويين واللغويين: أبو بكر الزبيدي، تحـ أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف 1984.

١٦. غاية النهاية في طبقات القرآء: ابن الجزري، عناية برجستراسر، مكتبة الخانجي 1932.

١٧. غريب القرآن: لأبي عبد الرحمن بن عبد الله اليزيدي، عالم الكتب، بيروت 1985.
١٨. الفروق اللغوية: أبو الهلال العسكري، تعليق محمد باسل، دار الكتب العلمية، بيروت 2003.
١٩. فقه اللغة وسر العربية، لأبي منصور الثعاليبي، المكتب التجارية الكبرى بمصر 1983.
٢٠. الكتاب: سيبويه، تحـ عبد السلام هارون، دار القلم 1966.
٢١. الكشاف: جار الله الزمخشري، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
٢٢. المجازات النبوية: الشريف الرضي، تحـ طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي وشركاه القاهرة 1967.
٢٣. مجمع البيان في تفسير القرآن: الطبرسي، نشر ناصر خسرو، طهران.
٢٤. مراتب النحويين: لأبي الطيب اللغوي، تحـ أبو الفضل إبراهيم، م نهضة مصر، القاهرة.
٢٥. المزهر في علوم اللغة: جلال الدين السيوطي، شرحه وضبطه محمد جاد المولى، البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر.
٢٦. مسائل ابن الأزرق (في ضمن الإعجاز البياني للقرآن، تحـ بنت الشاطئ).
٢٧. معاني القرآن: أبو زكريا الفراء، تحـ أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار، م دار الكتب المصرية 1955.
٢٨. نزهة الألباء في طبقات الأدباء: لأبي البركات الأنباري، تحـ د. إبراهيم السامرائي، مكتبة الأندلس بغداد 1970.